المحاضر الثالثة: الخطابة العـــربية

تعريف الخطابة:

تعد الخطابة من أهم الفنون الأدبية الشفوية الإلقائية الّتي تهدف إلي إيصال خبرٍ أوفكرةٍ ما لجماعة من المستمعين على نحو مؤثر ومقنع، وهكذا نرى الإقناع والتأثير هما غايتا الخطابة ومحوراها الرئيسيان، وبتحقق التأثير والإقناع، فإنها تفض المشاكل وتقطع الخصومات، وتهدئ النفوس الثائرة، وتثير حماسة ذوي النفوس الفاترة، وتصبح صوت الهداية، وترشد الناس إلى الحقائق وتحملهم على ما ينفعهم فى العاجل والآجل. والخطابة معدودة من وسائل الرياسة والزعامة، وكانوا يعدّونها شرطاًللإمارة، فهى ترفع الإنسان إلى قمم المجد والشرف والعزّة، إذ لا يمكن أن ينتصر صاحب دعاية ومناد بفكرة، وصاحب إصلاح، إلا بالخطابة.

والخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة، والثورات الكبيرة التي نقضت بنيان الظلم، وهدمت قصور الباطل؛ فهذه الثورة الفرنسية قامت على الخطابة، وهي التي كانت تؤجج نيرانها، وتذكي لهيبها. والخطابة أيضا قوة تثير حمية الجيوش، وتدفعهم إلى لقاء الموت، وتزيد قواهم المعنوية، ولذلك كان قواد الجيوش المظفرين في القديم، والعصور الحديثة خطباء مصاقع **فبيركليس وبوليوس قيصر ونابليون خطباء، وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وطارق بن زياد خطباء كبار حملوا معهم سلاحا معنويا بجوار السلاح الحديدي.**

الخطابة العربيّة قبل الإسلام:

مما لا شكّ فيه أن عرب ما قبل الإسلام كانت لهم خطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة والمصيريّة واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواهم للحرب والغزو أو السلم والسلام فقد ذهب الكثير من هذه الخطب مع الزمن وحفظ لنا التاريخ قليلاً منها، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين.

وقد تعددت أغراض الخطابة الجاهلية بتعدد اهتمامات الإنسان الجاهلي، فكانت خطابة بطولة وفروسيّة يفوه بها الخطباء للدعوة إلى القتال والحضّ على النزال، وكانت خطابة دفاعٍ أو صلحٍ وسلام؛ وكانت خطابة مفاخرة أو منافرة أمام حكم يحكم، أو في حضرة ملكٍ تميل بميله كفّةُ الميزان. وكانت خطابةُ زهدٍ تدعو الناس إلى الصدوف عن بهارج الدنيا والتعلّق بحبال الآخرة؛ وكانت خطابة كهّان يسجعون سجع الحمام [**سَجْعُ الحمامةِ موالاة صوتها على طريق واحد تقول العرب سجَعَت الحمامة إذا دَعَتْ وطَرَّبَتْ في صوتها**] فى سبيل هدف غيبيّ يُطلقون وراءَه الأقاويل، وينصبون على جوانبه الأحابيل؛ وكانت خطابةُ زواج يُعقَد ويبارك، أو خطابةُ موت يُلمّ فيفجع، ويرمي القلوب في هوّةٍ سحيقةٍ من الحزن، ويحمل على التأمّل في حقيقة الوجود؛ وكانت أخيراً خطابة وصايا يتوجه بها الطّاعنون في السنّ إلى أبنائهم وأحفادهم للسير بهم فى سبيل الخير والشرف.

ولخطابة الجاهليين أسلوبان هامان، أحدهما يتخذ العقل دليلا ويركب مركب الحجة المقنعة، ويعتمد العبارة الموجزة والحكم الوافرة التي تخاطب العقل. وأما الأسلوب الثاني فيتخذ العاطفة وسيلة للإقناع، فيعتمج العبارات القصيرة، والسجع الموسيقي، والتشبه والاستعارة والصور الشديدة الوقع، ويكتفي من المعنى بالقليل المكرر.

وأما قيمةُ هذه الخطب من حيث الفصاحة والبلاغة، فنجدها في ذروة البيان، وكان الشعراء والبلغاء فخر القبيلة وعزها ومجدها، وإذا قالوا فقولهم كان بمثابة التنزيل عند أقوامهم، وإذا تكلموا فكلامهم رافع خافض، ونذكر من خطباء

العرب في الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادي ، وقيس بن خارجة بن سنانة خطيب داحس والغبراء، وعتبة بن أبى ربيعة، سهيل بن عمرو الأعلم، وأبو عمّار الطائي، وسعد بن الربيع.

ومن أشهر خطباء العرب قبل الإسلام، قس بن ساعدة الإيادي الذي يضرب به المثل في البلاغة والحكمة. كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف إلى الأصنام وعبادتها، ويهديهم إلى عبادة الخالق ويرشدهم إليه، ومن خُطَبِه التي خَطبها في سوق عكاظ قبل البعثة النبويّة قوله:

"أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. لَيْلٌ دَاج، ونهارٌ سَاج، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاج، ونُجُومٌ تُزْهِر، وبحَارٌ تزْخَر، وجِبالٌ مُرْسَاة، وَأَرْضٌ مُدْحَاة، وأَنْهَارٌ مُجْرَاة، إنَّ في السَّمَاءِ لَخَبَرَا، وإنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرَا. مَا بَالُ النّاسِ يَذْهَبُونَ وَلاَ يَرْجِعُون؟ أَرَضُوا فَأَقَامُوا أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا.

يَا مَعْشَرَ إِيَاد، أَيْنَ الآبَاءُ والأَجْدَاد؟ وَ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ الشِّدَاد؟ أَلَمْ يكُونُوا أَكْثَرَ منْكُمْ مَالاً؟ وأَطْوَلَ آجَالاً؟ طَحَنَهُمُ الدَّهْرُ بِكَلْكَلِه، ومَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ".

يعتمد قس في خطبيته هذه على أسلوب السجع الموسيقيّ، والعبارات قصيرة، والتشابيه والاستعارات الكثيرة الشديدة الوقع في قلب السامع وعاطفته. يقول حنا الفاخوري معلقا على أسلوب قس في خطبه:"إنّه ينقض بخطبه على سامعيه انقضاضاً لكي يقتلعهم من ذواتهم الماديّة وينقلهم إلى ذواتهم الروحيّة فيرتفعوا من صَنَميّتهم الى عبادة الله الحقّ. وهكذا فخطابته رسالة تبشيريّة تُوقظ الضمائر وترغب في الخير والحسنى".

الخطابة الإســلاميّة:

الخطابة الإسلامية إحدى الفنون الأدبية الّتي ساهمت بصورة مباشرة وفعّالة في تثبيت الإسلام وإحكام بنيانه ونشره في الجزيرة العربية ومن ثم بثه في أرجاء المعمورة، فهي لسان الدعوة الإسلاميّة وأداتها الأولى الّتي تدعو العرب إلى نبذ العقائد الجاهليّة، وتحثّهم على الدخول في الإسلام واعتناقه؛كما كان من الواجب على الرسول وخطبائه أن يردّوا على وفود القبائل العربيّة وخطبائهم للكشف عن أكاذيبهم وإظهار مفاسدهم الّتي يقيمون عليها، وشرح محاسن العقيدة الإسلامية الّتي تضمن لهم العزّ في الدّنيا والسعادة في الآخرة[1].

وكان للخطابة الإسلامية دور في الحياة اليومية للمسلمين، وذلك بتقريب تعاليمها إليهم وتعميق فهمهم لدينهم الجديد وتبيين أحكامه في الحلال والحرام، وحلّ مشاكلهم في ضوئها.

كما كان لها أيضا دور هام في موضوع الجهاد والفتوحات الإسلاميّة، حين كان القادة والمرشدون الدينيون يلهبون مشاعر عساكرهم بما أعدّ الله من خير للمجاهدين والشهداء فيتسابقون إلى ميادين الحرب والقتال من غير خوف أو رعب.

[1]- في قُدوم وفد بني تميم على الرسول - ﷺ - صورةٌ واضحةٌ لعِظم أثر الخطابة في الدعوة الإسلامية، وقد ساقها المفسرون والمؤرخون: أنهم قدموا عام الوفود واجتمع الناس في المسجد، ونادَوا رسول الله - ﷺ - ليخرج إليهم وهم المعنيون بقوله فلما خرج إليهم قالوا: جئنا نفاخرُك ونشاعرُك بخطيبنا وشاعرنا، فقال - ﷺ -: «ما بالشعر بُعِثْت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا».فقال الزبرقان بن بدر لشاب: «افخر واذكر فضل قومك»، فقال: «الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير أهل الأرض، من أكثرهم عددًا ومالاً وسلاحًا، فمن أنكر علينا فليأتِ بقولٍ هو أحسن من قولنا، وفعلٍ هو أحسن من فعلنا...../.....

أنواع الخطابة الإسلامية:

ومن أهم الخطب الإسلامية على الإطلاق، الخطابة الدينية، كانت تُلقى على مسامع النّاس لإرشادهم تقوى الله وكسب رضاه ونيل سعادة الدّنيا والآخرة وبيان أحكام الدين الجديد. وهي في الوقت نفسه خطابة دفاعية تدحض آراء الخصوم، وترد على كل معاند ومكابر، فكان النبي [ص] يفسر تعاليمه في المساجد ويبسط الآراء والشرائع، ويهاجم التيارات الفكرية القائمة والعادات والتقاليد البالية، وهكذا كان الخلفاء يعملون من بعده ناهجين نهجه، مهتدين بهديه.

ومن أهم النماذج التي يمكن أن تساق للخطابة الدينية في هذا العصر، خطب الرسول [ص]. يقول في واحدة منها، بعد البسملة،:**"أيها الناس إن لكم معالِم، فانتهوا إلي مَعالمكم و إن لكم نهايةً فانتهوا إلي نهايتكم، فانّ العبد بين مخافتين أجَل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه، وأجل باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه. فَلياخُذ العبد من نفسِهِ لِنَفسِهِ، و من دنياه لِآخرتِهِ، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذى نفسُ محمدٍ بيدهِ. ما بعد الموت مِن مُستَعتَب، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلاّ الجنة أو النار".**

وقد استدعت الخطابة الدينية خطابة أخرى تساندها وتكون امتدادا لها. فالعهد عهد اصطراع، ولا بد فيه من خطابة سياسية تجمع شمل العرب في ظل النظام الجديد، فكم من مرة وقف النبي والخلفاء الراشدون من بعده، يفصلون النظم والشرائع، ويحضون المؤمنين، في الخطب الحربية، على القتال ويبعثون الحمية في الصدور، وكان القواد من بعدهم يذكون في خطبهم الحماسة في القلوب وينفخون فيها الشجاعة والصبر وقوة الإيمان[1]. وإلى جنب هذا كله واصلت خطابة المفاخرة والمنافرة سيرها في ضعف شديد، وواصلت خطابة الوفود سيرها أيضا، وظهرت خطابة الاستخلاف والولاية عند مبايعة خليفة أو تولية وال، وهدفها تخطيط سياسة أو تسكين فتنة.

ومن خصائص الخطابة في هذا العصر، أنها كثيراً ماتكون قصيرة العبارات كثيرة المعاني، وفيها حثٌّ على الأعمال الصالحة ونهيٌّ عن ارتكاب الباطل، فيها تبشير وفيها وعيد، تبشير بالجنة ووعيد بجهنّم. وأصبحت الخطب تفتتح بالبسملة والحمدلة، وفيها حرص شديد على تضمينها بعض آيات القرآن الكريم، لأن الخطبة التي لا تفتتح بالبسملة والحمدلة تسمى عندهم " البتراء" كخطبة زيد بن أبيه بالبصرة في عصر بني أمية، والخطبة التي لم توشح بآي القرآن ولم تزين بالصلاة على النبي تسمى عندهم "الشوهاء".

.../... فقال رسول الله - ﷺ - لثابت بن قيس بن شماس - وكان خطيبه : «قم فأجبه»، فقال: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، أؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمِّه أحسن الناس وجوهًا وأعظمهم أحلامًا فأجابوه، والحمد لله الذي جعلنا أنصارَ دينه، ووزراء رسوله، وعِزًا لدينه؛ فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله - ﷺ - فمَن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قتلناه، وكان غرمه علينا هينًا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ثم قام شاعرهم فأنشد، ثم أجابه حسان - رضي عنه - فقال الأقرع بن حابس - رئيس الوفد: «والله، ما أدري: ما هذا الأمر؟ تكلم خطيبنا فكان خطيبُهم أحسنَ قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرُهم أشعرَ وأحسَنَ قولاً"، ثم دنا من رسول الله - ﷺ - وقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنك رسول الله.

[1]- من أمثلة الخطب الحربية، خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قام في جيشه خطيبا فقال:" أيها الناس أين المفر، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم[...] فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت....."

ومن خصائصها أيضا أن الخطباء كانوا يعمدون إلى تضمين خطبهم أبياتا شعرية لتقوية كلامهم وتأكيده، فالبيت الشعري يمكن أن يكون أعمل في النفوس من الخطبة كلها عند العرب. كما نلمس أيضا نزعة إلى التفصيل وإطالة العبارة، والخروج عن سنة الجاهليين في التقطيع والتوثب.

الخطابة في العهـد الأموي:

الخطابة الأموية امتداد للخطابة التي ازدهرت في أواخر العهد الراشدي، وهي نتيجة لأحوال البيئة وصرة صادقة عنها. والبيئة بيئة اضطراب سياسي واجتماعي ولاسيما بعد مقتل عثمان بن عفان، فقد اصطرع المسلمون اصطراعا عنيفا، فكانت الخطابة في كل ذلك وسيلة وعدة وأمضى سلاح، وكان الخطباء في أصل كل حركة وفي قمة كل فتنة.

وقد نتج عن هذا الاصطراع أن كانت الخطابة الأموية **سياسية بالدرجة الأولى**، فكان للحزب الأموي خطباؤه الذين يدعون إلى طاعته، ويعلنون حقه في الخلافة، ويناهضون مناوئيه، ويهددون الخارجين والمارقين، ومن أشهر هؤلاء معاوية أبي سفيان، والحجاج ابن يوسف وزياد ابن أبيه. وكان للشيعة خطباؤها وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب، ودعواهم أن الخلافة حق شرعي لهم، وأن معاوية مغتصب، وكان للزبيرية خطباؤها وعلى رأسهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير، وكانا يعتمدان على الآيات لتكفير الأمويين وإظهار مروقهم ونفاقهم، وكان للخوارج خطباؤهم وفي مقدمتهم قطري بن الفجاءة ومنهجهم أن الإمامة غير محصورة في قريش، وأن الخلفاء الراشدين أئمة إلا عثمان في سنيه الأخيرة، وعليا بعد التحكيم، وأن معاوية كافر مارق.

وإلى جانب الخطابة السياسية، ازدهرت **الخطابة الدينية** بتعدد فروعها واختلاف تشعباتها، فهناك خطب الجمع والمحافل الدينية تفصل التعاليم وتحث على الورع والتقوى، وهناك الخطب الكلامية كخطب واصل بن عطاء التي تعتمد على الفلسفة الكلامية، وهناك الخطب الصوفية التي تدعو إلى الزهد والصدوف عن أباطيل الدنيا.

وإلى ذلك واصلت **خطابة الفتوح** سيرها ترافق الجيوش في شمال إفريقيا وبلاد السند والهند، وتبعث الحماسة في صدور المقاتلين، **وخطابة الوفود** التي تدخل على الخلفاء مهنئين أو متظلمين، **وخطابة الاستخلاف والولاية** عند مبايعة خليفة أو تولية وال وهدفها تخطيط سياسة أو تسكين فتنة.

خصائص الخطابة الأموية:

الخطابة الأموية خطابة تسيطر عليها روح الخصام والجلاد [المجلدة: المباطلة. مسافهة القول]، وقد وجدت في هذا الجو المحموم ما شحنها بالنقاش والجدل، وما وجهها توجيه عمق واتساع وجدة، وتوجيه قوة وعنف، واتسامها بروح منطقية تنظم وتبني، وروح اللباقة ولا سيما في خطب الحزب الأموي، حتى ليبدو الباطل على ألسنتهم حقا والحق باطلا، فقد شاعت في خطابة بني أمية السياسية نزعة الميكيافيلية الأموية التي تتستر بستار الدين والتقوى في سبيل الوصول إلى الهدف، وأما الخطابة الدينية، فقد شاعت فيها روح الفلسفة والجدل، وفي خطابة الوفود نزعة البلاغة الأخّاذة.

الخطابـة في العصر العباسي:

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية ووسطها في بعض الوجوه، لأن كلتا الدولتين نشأت في وسط فتنة هوجاء كثيرة العنف، قوية الأثر، شديدة اللّجب، ولأن كلتيهما لا تكادان تستقران حتى يخرج الخارجون من كل ناحية، وتهدد الدولة بالتمزيق، وكان الخلفاء في كلتا الدولتين ذوي بيان ولسن، القول البليغ عدتهم وذخيرتهم، ولهذا التشابه كانت الخطابة

رائجة في صدر الدولة العباسية، كما كانت رائجة في صدر الدولة الأموية ووسطها، وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين متقاربة ودواعيها متشابهة.

وقد أخذت الخطابة في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسيين وتضافرت أمور في إضعافها، فمن ذلك أن الدواعي إلى القول قد ضعفت، فقد ثبتت دعائم الدولة وقامت أركانها، وقل الخروج عليها، فذهب بسبب هذا السكون أعظم دواعي الخطابة. وأما السبب الثاني فمتمثل في أن الجند وهم حماة الدولة قد غلبت عليهم العجمة، إذ كان العباسيون يستعينون في حماية دولتهم بالفرس والترك، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربي البليغ، وإنما تثيرهم عصبياتهم الجنسية التي كان لها السلطان الأكبر في ذلك العصر. وأما السبب الثالث فمتعلق بازدهار الكتابة التي حلت محل الخطابة، فقد اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها، حتى صار الخليفة أو الوالي أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت أمرته إلى شيء، أناب كتابه عن خطابه، ومن أجل كل هذا لم يبق للخطابة إلا بعض الأصداء في المساجد والجوامع تبسط المواضيع الدينية في الجمع والأعياد.

وإذا كانت الخطابة قد ركدت لهذه الأسباب، فقد خلفها فن من القول صاحبها زمنا، ثم انفرد بعدها بالسلطان، وذلك الفن هو المناظرة، وقد سادت المناظرات ذلك العصر، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظم أمر العلم، فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم، وصارت مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية.